محاضرات فنيات التعبير الشفهي

امتلاك أساليب التعبير ووسائله

يستطيع الإنسان أن يمتلك أساليب التعبير ووسائله من خلال عملية التعلم, والتوسع في أبواب العلم المتعددة, فقد كان من عادة العرب قديما تأديب أبناءهم وإرسالهم إلى البوادي ليتمكنوا من اكتساب اللغة ويُحَصِّلُوا استقامة اللسان, قال الرافعي: " كان بنو مروان يلزمون أولادهم البادية لينشئوهم هناك على تقويم اللسان وإخلاص المنطق، ومن أجل ذلك قال عبد الملك: أَضَرَّ بِالْوَلِيدِ حُبُّنَا, فَلَمْ نُوَجِّهْهُ إِلَى اَلْبَادِيَةِ "[1], وقد سار على هذا النهج كثير من الآباء مع أولادهم, روى الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء) في ترجمة الشافعي, قال: " اتَّفَقَ مَوْلِدُ الإِمَامِ بِغَزَّةَ، وَمَاتَ أَبُوْهُ إِدْرِيْسُ شَابّاً، فَنَشَأَ مُحَمَّدٌ يَتِيْماً فِي حَجْرِ أُمِّهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ، فَتَحَوَّلَتْ بِهِ إِلَى مَحْتِدِهِ وَهُوَ ابْنُ عَامَيْنِ، فَنَشَأَ بِمَكَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّمْيِ، حَتَّى فَاقَ فِيْهِ الأَقْرَانَ، وَصَارَ يُصِيْبُ مِنْ عَشْرَةِ أَسْهُمٍ تِسْعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ، فَبَرَعَ فِي ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ, ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الفِقْهُ، فَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ "[2].

كانت هذه هي الطريق الأولى في تصحيح اللسان وتقويم الفكر حين كانت البادية, وكان فيها اللسان صحيحا, ولكن بمرور الأزمان, افتقدت هذه الخاصية, وعوضت بخير منها, فكان الآباء يحرصون على تلقين أبنائهم مبادئ العلم, انطلاقا من تحفيظهم كتاب الله تعالى, وأشعار العرب القدامى, كما يذكر أحمد أمين عن حياته, فقد تفتحت عيناه على القرآن الكريم الذي يتلوه أبوه صباح مساء, وقد كان يهتم به منذ صغره، ويساعده في حفظ القرآن الكريم، ويفرض عليه برنامجا شاقا في تلقي دروسه وتعويده على القراءة والإطلاع، كما كان صارما في تربيته يعاقبه العقاب الشديد على الخطأ اليسير, ومثله كثير من العلماء الذي كانت بداية حياتهم

---

[1] ـ تاريخ آداب العرب, مصطفى صادق الرافعي, تحقيق: محمد سعيد العريان, دار الكتاب العربي, بيروت ــ لبنان, الطبعة: الخامسة, 1420ه ــ 1999م, (انتشار اللحن) (1/ 240).

[2] ـ سير أعلام النبلاء, شمس الدين أبو عبد الله الذهبي, تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة, الطبعة: الثالثة ، 1405هـ / 1985م, (10/ 6).

مع كتاب الله عز وجل, على اختلاف الأماكن والأمصار, فتجد في مصر كوكبة من العلماء والأدباء, كانت بدايتهم مع كتاب الله عز وجل, كالرافعي وطه حسين والمحدث أحمد محمد شاكر, وأخوه الأديب المؤرخ محمود محمد شاكر, وغيرهم, وفي الجزائر تجد ابن باديس, والإبراهيمي, والعقبي, والتبسي, وغيرهم كثير.

بل إن النهج الذي انتهجته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سبيل الإصلاح, والنهضة بالأمة, كان يرتكز أساسا على فتح مدارس تحفيظ القرآن الكريم في كل المدن, والمداشر, والقرى, حتى يتسنى لأفراد الشعب رفع الجهالة عن أنفسهم, وبث روح العلم في ما بينهم بغية تحقيق الذات, ودفع المستعمر الغاشم.

آثار حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب على عملية التعبير:

وتتبين آثار ذلك على عدة مستويات:

مستوى الأفكار والتصورات:

يتمكن الإنسان المتعلم من كسب كثير من المهارات والقدرات إذا تمكن من نصوص القرآن وأشعار العرب حفظا وفهما, وعلى رأس ذلك امتلاكه لرؤية صحيحة للأحداث التي تدور حوله, لأن القرآن جاء أصالة لتصحيح رؤى الناس في هذه الحياة, تلك الرؤية التي يستطيع من خلالها الإنسان معرفة دوره في الحياة, والغاية من وجوده, وسبيل الوصول إلى الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها, كما يستطيع رؤية الآخر بشكل واضح وصحيح, وما يجب عليه تجاهه, وما له عليه من حقوق, ومن هذا المنطلق تتكون لديه الأرضية الصلبة التي تمكنه من إصدار الأحكام على الأشياء التي تحدث بين يديه.

لقد كانت عوالم الغيب في القرآن الكريم المحور الأساس الذي تدور حوله آياته, ومن ثمة وجب الإيمان بها, والتسليم المطلق لما جاء فيها, ولا شك أن هذا الإيمان له دوره المهم والأساس في توسيع تصورات الإنسان وأخيلته, فكثير من الناس يظن أن بينه وبين باقي الحيوانات فارق النطق, حتى اشتهر بينهم تعريف للإنسان بأنه حيوان ناطق, ولكن نصوص القرآن قد وسعت أفق تصور الإنسان حين بينت أنه (مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا

فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام: 38], ثم إن للطير منطقا, كما قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [النمل: 38], فبينت الآية أن سليمان عليه السلام قد تعلم منطق الطير لحكمة يقتضيها مقامه, وأن للطير منطق لا يستطيع فهمه إلا من خلال علم يتعلمه, وقد بينت الآيات بعدها ذاك الحوار المدهش بينه وبين الهدهد, في قصته معه, قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)) [النمل: 20 – 28], بل بينت الآيات عقيدة هذا الهدهد, ومعرفته بالله, وتوحيده له, ونبذ الشرك وإنكاره على أهله. ويستمر خيال الإنسان في عيشه مع باقي قصة نبي الله سليمان عليه السلام, ليقف منبهرا أمام مشهد عظيم, من مشاهد القدرة التي مكن الله منها نبيه سليمان عليه السلام, وهو مشهد الإتيان بعرش بلقيس, بعملية نقل لم تتكرر على وجه الأرض من اليمن إلى فلسطين, قال تعالى وهو يصور مشهد مجلس الملك سليمان مع قادة جيشه: (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)) [النمل: 36 – 40].

وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة تزخر بها نصوص الكتاب الكريم.

ومثل ذلك يحصل مع العرب وأشعارها, وهي تنقل لنا حياتهم, وتترجم لنا خيالهم وواقعهم, فيعيش الإنسان تارة مع حكمة زهير بن أبي سلمى, وتارة مع بطولة وفروسية عنترة, وتارة أخرى مع براعة وصف امرئ القيس, وحالات لوم وعتاب النابغة, وعلى مثل تقاس الأمور.

مستوى طرق وأساليب التعبير:

تتنوع أساليب وطرق تبليغ الكلام بحسب الغايات والأهداف المرجوة من العملية التعبيرية, وفي جملتها تتلخص في أسلوبين معروفين, أحدهما خبري, والآخر إنشائي. وللناس طرق تختلف, وأحوال تتباين, تنعكس صورة تكوين شخصية كل واحد منهم في طريقة تعبيره, وأسلوبه في الكلام.

جاءت نصوص القرآن الكريم معجزة للعرب في أساليب كلامها وطرق تبليغها للمعاني القائمة في ذاتها, فوقف الناس مندهشون أمام كلام لم يستطيعوا تصنيفه, أهو من قبيل الشعر ؟ أم من ضروب النثر ؟

فنُقِلَتْ لنا صورة أحد العرب الخُلَّصِ, وهو مندهش أمام أسلوب الاستفهام المقرع للآذان والقلوب في أواخر سورة الطور, " عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ, فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37)) كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ "[1].

ومن الأساليب العجيبة في القرآن الكريم أسلوب التهكم من الكفار والمنكرين الجاحدين للرسالة, قال تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)) [الدخان: 43 – 50].

قد أحاط النص القرآني بكل ما تعرفه العرب من أساليب الكلام, وطرق الأداء, وزاد على ذلك الشيء الكثير, فمن أراد الاستزادة فعليه التزود من معينها الذي لا

[1] ـ صحيح البخاري, حديث رقم (4854).

ينفد, قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)) [لقمان: 27].

وحتى يقترب الإنسان من الأداء الطبيعي للكلام, عليه أن يتعرف على أساليب ذلك عند شعراء وأدباء بني جنسه.

مستوى امتلاك الرصيد اللغوي (ألفاظ ومفردات):

قد كُتِبَ للغة العربية دون سواها من اللغات الخلود والبقاء, ويرجع السر في ذلك إلى حفظ الكتاب الكريم بحفظ الله عز وجل, قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)) [الحجر: 9], فحفظ الله العربية من الزوال والاندثار, وحفظ علوم اللسان التي وضعها العلماء خدمة لكتابه, وقد نقل العلماء الكثير من الشعر العربي القديم في تفسير وفهم نصوص القرآن الكريم, فـ" عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) [القلم: 42]. قَالَ: إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَابْتَغُوهُ فِي الشِّعْرِ، فَإِنَّهُ دِيوَانُ الْعَرَبِ "[1].

وبقدر تمكن الإنسان من حفظ نصوص القرآن الكريم, وكلام العرب, بقدر امتلاكه الرصيد الكلامي الذي لا يضاهى, ولكن على الإنسان أن يرتقي في ذلك وفق خطة تدريجية تمكنه من تحصيله للعلم, فإنه من رام العلم جملة تركه جملة, وعلى الطالب أن يتحلى بالصبر والعزيمة, فإن العلم لا يستطاع براحة الجسد.

[1] ـ المستدرك للحاكم النيسابوي, حديث رقم (3845).